جامعة محمد بوضياف
كلية العلوم الإنسانية

محاضرات في الحركات الصوفية م 2
تواصل و تكامل مدارس التصوف في المشرق و المغرب الإسلاميين
(2ه-14ه)

الأستاذ الدكتور كمال فيلالي

أصول تيارات الزهد و التصوف :

صعب الجزم بتحديد و ضبط تاريخ بداية التصوف ، لكن تتفق اغلب المصادر على ان الزهد الإسلامي، كانقطاع عن حياة البذخ و البروز في المجتمع، يعود الى عهد صحابة الرسول (ص) من اهل الصف الأول أو الصفوة في القلب و المعاملة. فأهل الصفة في نظر ابن خلدون هم المهاجرون الذين اختصوا بالإقامة في صفة مسجد رسول الله مثل أبو عبيدة الجراح (583ه -639ه) ابي هريرة الدوسي (ت 678ه) و ابو در الغفاري(ت 65ه) و بلال الحبشي (580-640ه). غير ان هؤلاء لم يكونوا زهادا بمفهوم الزهد الصوفي، مختصين في طريقة ما بالعبادة و الملازمة في القيام من غير ملازمة المسجد للغربة و الفقر. انهم كانوا اسوة للصحابة في العبادة لا غير.

بعد ان ظهرت الطائفة واجتمع الزهاد في شكل حلقات و عقدت المجالس على حسب الاذواق و الاتجاهات اصبح التصوف فن (أي علم: يقوم على التأمل و التجربة و الإحساس). هكذا أصبح الزهد منهجا و التصوف طريقة في العبادة.

ابن خلدون " شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ مكتبة الاسر 1996، ص 52

تكامل حركة الزهد و فكر التصوف بين المشرق و المغرب:

ا- ظهور الطوائف و الطرق:

في القرن الثاني الهجري أصبحت بغداد اكبر عواصم العالم من حيث المساحة (اربع مرات مساحة باريس في نفس الفترة ، أي 9 مليون هكتار) و تعداد سكانها، بلغ اكثر من مليون نسمة حسب تقدير لويس ماسينيون Louis Massignon، صاحب كتاب عذاب الحلاج (1) « La passion du Halladj» . الحلاج شخصية خارقة للعادة اولع بها ماسينيون . لدرجة انه اخذ شذرا كبيرا من حياته العلمية و المهنية و اثر في وجدانه و فوسمه بمسيح الإسلام وكان سببا في دخوله الاسلام.

ظهرت أولى مدارس الزهد و التصوف في منتصف القرن الثاني في البصرة و بغداد و الكوفة. و من اشهر رواد مدرسة الكوفة يذكر الربيع بن الهيثم (ت سنة 65ه) و هو احد رواة الحديث و سعيد بن جبير (ت سنة 95ه) و سفيان الثوري و رابعة العداوية (100-180ه)و هي من تيار العشق الالاهي لكنها اقل تشددا من الحلاج شيخ مدرسة الوجدان و الحلول.

من اشهررواد مدارس التصوف في البصرة و بغداد حسن البصري(21-110ه) ورياح بن عمرو القيسي(م) و هما شيخا الحلاج المثير للجدل في تقلباته المظهرية : في ملبسه (تارة يرتدي المرقعة و تارة أخرى يرتدى معطف النبلاء) و افعاله و في سلوكه و فلسفته الوجدانية التي تقوم على الحلول.

1--Louis Massignon la Passion de Halladj, T.1, p.50

تطورت مدارس الزهد و التصوف في القرن الثالث الهجري، اثناء الحكم العباسي، في عهد المأمون (833م-218ه) ابن هارون الرشيد الذي شجع على انتشار العلوم بكل اصنافها فازدهرت في عهده بيوت المنطق و الحكمة.

برع الكثير من العلماء في علم الفلسفة و وعلم الكلام والمنطق و علم الفلك أمثال الفارابي و الكندي و الجاحظ، ولم تكن العلوم الدينية علم الباطن و الظاهر بمعزل عن هذا التطور. فبرز الكثير من علماء الميتافيزيقا و علم الفلك مثل الحارث المحاسبي (170-243ه-781 م857) الذي تتلمذ عليه جنيد البغدادي(215-298ه) امام الطائفة (طائفة اهل السنة)، كتب في الفناء و المعارج و أبو يزيد البسطامي المعروف بسلطان العارفين (188-261ه). و تعرف مدرسته بالطيفورية او البسطامية و سهل التستري (818-896ه)، احد أئمة الصوفية و علماء المتكلمين بزغ نجمه في الرياضيات و علم الأفعال و له راي حول الفناء و درجات التوحيد اخدعن ذو النون المصري 179ه-245 ه) التصوف و عالم الحديث. كل هؤلاء من علماء من اهل الطائفة، من أصحاب الطريقة و الشريعة، أي لهم اتباع و مدارس في الزهد و علم الحديث. اما الحسن ابن منصور الحلاج (244ه-309) فكان فريدا عصره من خلال شطحاته وفيضانه الروحاني و فلسفته الوحدة الوجودية و اعتقاده الحلولي (السطر هو مجموعة نقاط فلا سطر بلا نقاط) .

خلافا لتلمذه الحلاج و أبو القاسم جنيد(215-298ه) كان ملتزما لدرجة انه لقب بامام الطائفة أي منظر التصوف من أصحاب العشق الالاهي المحدثين. رسم الجنيد للتصوف اطارا و حدودا و قواعد شرع و زَنْدَقَ كل من خرج عليها. كما فعل مع الحلاج لما ادعى الوحدة الوجدانية و الحلول حيث اتهمه بالزندقة، حيث تنبأ صلبه فقال له :" أي خشبة تفسدها يا حسين «أي على أي خشبة تصلب» (صلب الحسين بن منصور الحلاّج في محلة باب الكرخ في بغداد (26 آذار 922).

التصوف و الثورة الاجتماعية :الصراعة بين الزهاد وأصحاب الرياسة.

اغفلت اغلب المصار الإسلامية الاحداث الاجتماعية و الصراعات السياسية التي كانت سببا في ظهور الزهد و الزهاد و دعاة الثورة على الفساد.

ادى انتشار التيارات ' الزهدية ' الى ظهور المدارس الصوفية التي كان لها اثرًا كبيرًا على ازدهار علوم الكلام و الشريعة والفلسفية. فزاد الاجتهاد و كثرت المناظرات و الجدل بين علماء الظاهر و علماء الباطن، بين أصحاب الحقيقة و الشريعة. وورد عن الإمام مالك رحمة (93-179ه)الله تعالى عليه أنه قال: من تصوف ولم يتفقه فقد تفسق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق». كما احتدم الصراع بين اهل الشريعة (من قضاة ورجال فقه) و الحقيقية (من متصوفة و زهاد من أصحاب الطريقة) و اهل السياسة و الرياسة (من اهل الحكم و السلطة في البلاط).

حدث شبه تحالف بين اهل الشريعة من فقهاء و قضاة مع اهل السياسة والرياسة ضد الزهاد المناوئين للسياسة من وسموا و اتهموا بالشرك و الزندقة خاصة اهل التوحيد و الحلول و دعاة الثورة على الأوضاع الاجتماعية و ضد طغاة القصور.

كان الحسين بن الحلاج زعيم مدرسة الحلول و الوجدان اول من نادى بالثورة و رمى بها في شوارع بغداد. هاجم الخلافة في عهد المقتدر بالله ، الذي ورث الحكم عن المكتفي بالله المتوفى (سنة 289ه) ، و طعن في حكمه و في مصدقيه سلطانه و انتقد بشدة حياة البذخ و الفساد التي يعيشها قصر البلاط الذي يؤج بالجواري (يقال حريم القصر يزيد عن 4000 جارية) و الاعوان الذين اسرفوا و استبدوا و ظلموا بخروجهم عن الشرع.

كان امير المؤمنين المقتدر قاصرا لا يتجاوز عمره 13 سنة، فكانت والدته شغب هي من تدير شؤون الخلافة. على الرغم من العدد الهائل لاتباع الحلاج و الزهاد من المناوئين للتصوف الا ان الشعب لم يتمكن من ان يتلقف الثورة و يدرم نيرانها في حاشية السلطان.

بدأت ملاحقة المشاغبين من أصحاب التيار الوحداني الوجداني الحلولي وعلى راسهم الحلاج، الذي سجن لمدة تسع سنوات بعد اختفائه لشهور، قبل يقبض و يحكم عليه القاضي أبو عمر المالكي(1) بالإعدام بتهمة الزندقة و ادعاء الربوبية لما نشد في العشق الالاهي و هو تحت سكر روحاني قائلا :

انا من اهوى و من اهوى انا ... نحن روحان حلنا بدنا

روحه روحي روحه ...

من رأى روحين حلت بذنا...

فاذا ابصرتني ابصرته...

و أذا ابصرته ابصرتنا.... روحي روحي روحه ....(ديوان الحلاج)

أمضى على قرار اعدام الحلاج 84 قاضي جلهم من حاشية البلاط.

تم تصليب الحسين الحلاج بعد ان بترت يداه و هو لم يتألم فحرق و نثر رماده في نهر الفرات.

روعة نهاية زعيم الحلول و الوجدان ادت الى اختفاء المدرسة الحلولية في الخلافة العباسية و اصبح أصحابها يدعون سرا.

1- القاضي أبو عمر المالكي: محمد بن يوسف ابن (1) إسماعيل بن حماد بن زيد، أبو عمر القاضي البغدادي، كان من أئمة الاسلام علما ومعرفة، وفصاحة وبلاغة، وعقلا ورياسة، بحيث كان يضرب بعقله المثل.
وقد روى الكثير عن المشايخ، وحدث عنه الدارقطني وغيره من الحفاظ، وحمل الناس عنه علما كثيرا من الفقه والحديث، وقد جمع قضاء القضاة في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وله مصنفات كثيرة.
ابن كثر البداية و النهاية. ص 193

القرن الخامس :

في القرن الخامس ظهرت في المشرق ثلة من المحدثين اقطاب الحقيقة و الشريعة ممن قننوا التصوف و احاطوه بالقران و السنة. فظهر القطب الغوث مولاي عبد القادر الجيلالي(470ه-561) الذي عرف بسلطان الاولياء و هو فقيه حنبلي مؤسس اول طريقة و مدرسة صوفية تربط الشريعة بالطريقة المثلى التي تقوم على الاحسان، لتكون بذلك طريقة الوسط بين الاتجاهات الصوفية. بعد سياحة دامت 25 سنة اصبح يلقب «بإمام التصوف». كانت له مدرسة تصدُّر لها في التدريس كان يحضره العلماء و الاتباع مدة أربعون سنة (521-561ه).

شاعت تعاليمه بين الهند و بلاد فارس و المشرق و المغرب الاسلامين و اصبح يعرف بغوث الاسلام فأسست له اول طريقة الغوثية او القادرية.

كما ظهر بعض الفلاسفة من أصحاب الاتجاه الميتافيزيقي و الوجوديون الملتزمون، كابن سيناء و أبو حامد الغزالي. بعد مروره بمرحلة من الشك و الاعتزال على طريقة الفلاسفة الافلاطونيون قام ابو حامد الغزالي (ت 450ه) برسم اطر التصوف السني المعتدل من خلال نشره كتابه "احياء علوم الدين" و اصبح يُتهم أي خارج عن القران و السنة او الداعي بالحلول بالزندقة. منذ ذلك الحين اتسمت كل المدارس بما في ذلك مدرسة العشق والاشراقة للسهواردي (ت:563هـ) صاحب «عوارف المعارف» هو صاحب مدرسة فلسفية صوفية متكاملة انتشرت في الشرق الأقصى و الأدنى بين الهند و باكستان و ايران عرفت بالانضباط و الالتزام بقواعد الشرع و التأقلم مع تيارات و مذاهب العصر. فجاءت فكرة الاخلاق كحجر الزاوية في تعاليم كل المدارس الصوفية بعد القرن الرابع الهجري.

أبو حامد الغزالي رائد المدرسة الميتافزيقية :

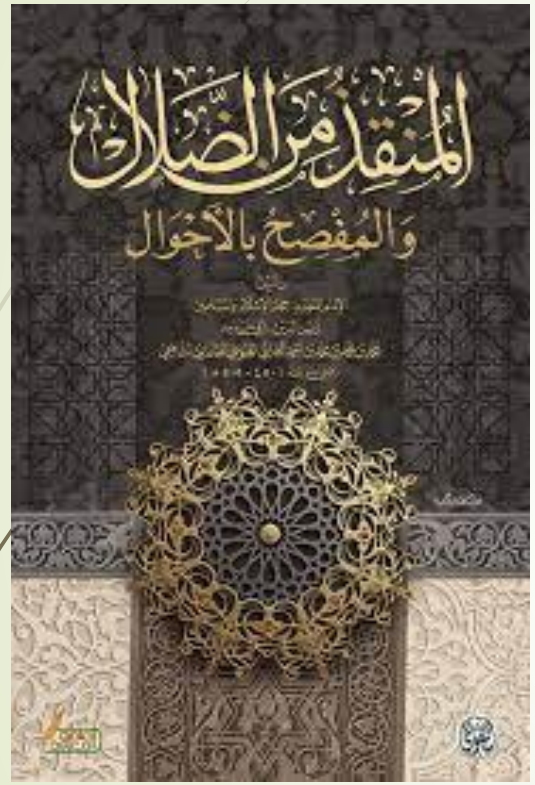

بعد مرحلة من السياحة و الشك بحثا عن الحقيقة الالاهية استقر راي الغزالي على فكرة التصوف السني الذي يقوم على الاكرام و الاحسان بغية الكمال كما ورد في كتابه" المنقذ من الضلال ". و أبو حامد الغزالي هو أبو حامد الغزالي النيسابوري الشافعي الاشعري فيلسوف و عالم في علم الكلام، المنطق و الفقه شافعي المذهب. تأثر أبو حامد الغزالي بابي المكي و الحارث المحاسبي و الجنيد الذي قرأ له " المتفرقات المأثورة" و ابي يزيد البسطامي(804-878م) فاخد عنهم عن طريق السمع و القراءة.

جعل أبو حامد الغزالي من التصوف مذهبا و علما من علوم الإسلام فنظر في التصوف و أحاط قواعده بالشريعة و الحقيقة التي جعل من قاعدته الايمان و قمته الاكرام و الاحسان (ان اكرمكم عند الله اتقاكم". سورة الحجرات اية3) و قوله تعالى ("هل جزاء الاحسان الا الاحسان".. الرحمان اية 3). و حيث قال في كتابه احياء علوم الدين:" يدرك الانسان مدارك التنزه و الكمال من خلال دم الاخلاق الخبيثة حتى تصبح النفس ملكا له و في تواصله بالذكر مع الله سبحانه يكشف عن الحقيقة".

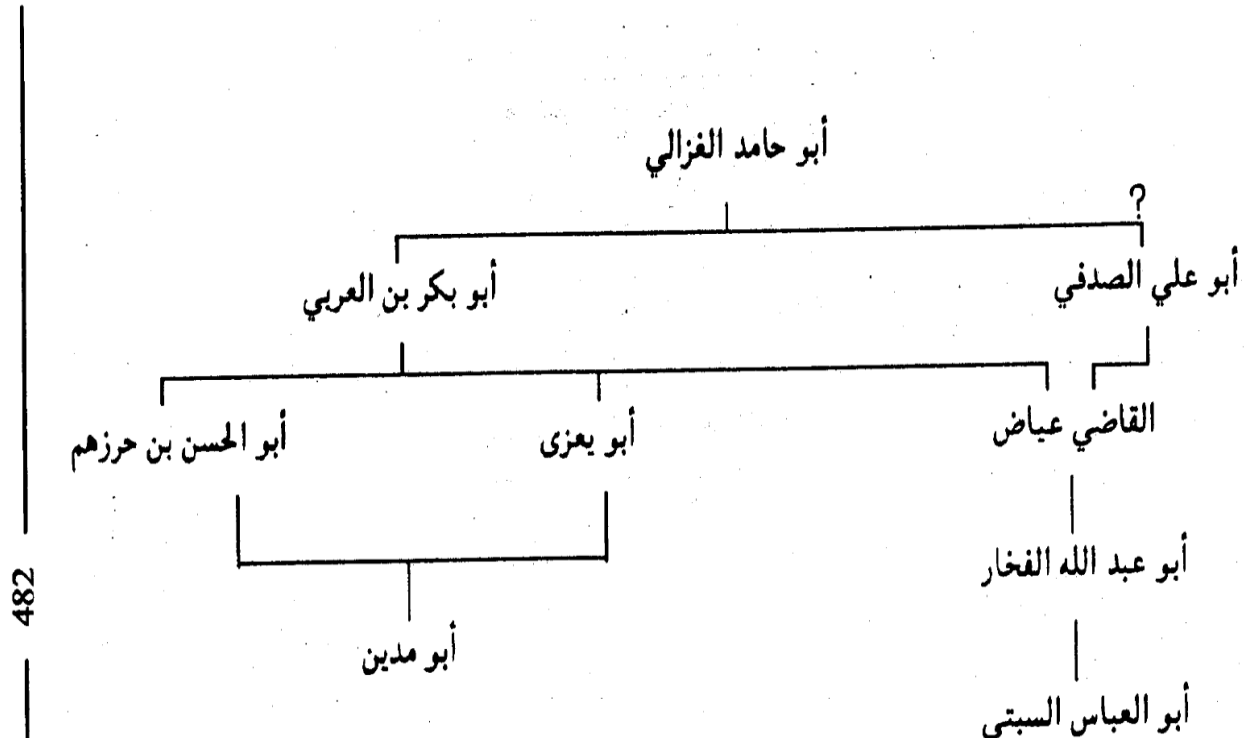

482

سند صوفي ينتهي فيه التلقي إلى أبي العباس السبتي الذي بعث في الحركة تجديدا قويا يتمحور حول التصدق والإحسان

عبد السلام غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الاندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد ، المغرب،2000

تأثر مدارس الغرب الإسلامي بالمشرق:

انتقل الزهد و التصوف الاسلامين عن طريق السياحة و الرحلات. كانت دائما ، (كما شرحناه في الملتقى المنظم حول" الرحلة الى الشرق" الذي اشرفنا على تنظيمه بجامعة قسنطينة سنة 2017 و تم نشره في نفس السنة)، الرحلة الدينة تتجه الى الشرق. فلما كان زهاد المشرق بغداد بلاد الشام و مصر يسيحون باتجاه الشرق الأقصى و الأدنى نحو الهند و افغنستان و بلاد الفرس كان المغاربة يسيحون الى البقاع المقدسة و الى المشرق الإسلامي خاصة الى الإسكندرية بحثا عن شيوخ يلقنونهم الطريقة و التجربة الروحية من علوم الفقه و السيرة. فتأسست اقطاب جاذبة في المشرق و المغرب فكان عبد القادر الجيلاني قطب و غوث المشرق و أبو مدين شعيب قطب و غوث الغرب و المشرق و كيلهما سطع نوره و داع صيته بين المشرق و المغرب، فلقب الأول بإمام المتصوفة و الثاني بسلطان الورثين. و من اقدم من نشروا تصوف المشرق في بلاد المغرب عبد الرحمان بن عبد الله. قال ابن الابار: " كان مكثرا رحالة انتباهه الناس و اخذوا عنه فقرأ عليه أبو سليمان بن حوط الله واكابر أصحابه و أجاز لي، (ابن الابار) في اول رحلته في سنة 562ه توفي 622ه".
فتوالت الرحالات الدينية و السياحات الصوفية و تكاثفت منذ عهد الاغالبة في عهد المرابطين ثم ازدهرت في عهد الموحدين و ازدهرت عن طريقها المدارس.

سير اعلام النبلاء ، صو52

المدرسة المدنية انتشار تصوف المغرب في المشرق و الاندلس:

ابو مدين شعيب الانصاري التلمساني الملقب "بشيخ الشيوخ" او " معلم المعلمين" فقيه و شاعرا و قطب اقطاب عصره باعث مدارس التصوف في المغرب و الاندلس كانت له سياحات دينية و علمية عديدة و طولة التقى خلالها بكبار علما الفقه و التصوف . التقى بإمام التصوف عبد القادر الجيلاني في الحج فتأثر به و أثر فيه. كما التقى بعلماء فاس فدرس بها و اخد عن علمائها ثم رحل اشبيلية و اتبعه جمهور كبير من المريدين و طلبة العلم و كانت رحلته جهادية دعوية فساهم في بناء رباط الجنود، كما شارك في الجهاد لتحرير القدس و أصيب في دراعه فبترت و ذغنت هناك في القدس . و في اشبيلية اخذ عليه ابن عربي و تاثر بحكمه التي تكلم عنها في "فصوص الحكم" . عاد أبو مدين الى بجاية ليقضى اغلب أيام حياته في التدريس و المناظرات الى ان ناداه الأمير المريني و توفي بموقع قريب من العباد في تلمسان.

شبكة تقريبية للعلاقة بين كبار الزهاد في القرن الرابع وبداية الخامس، ويشكل أبو بكر الإلبيري فيها مع الذين أخذوا عنه أركان المدرسة الإلبيرية

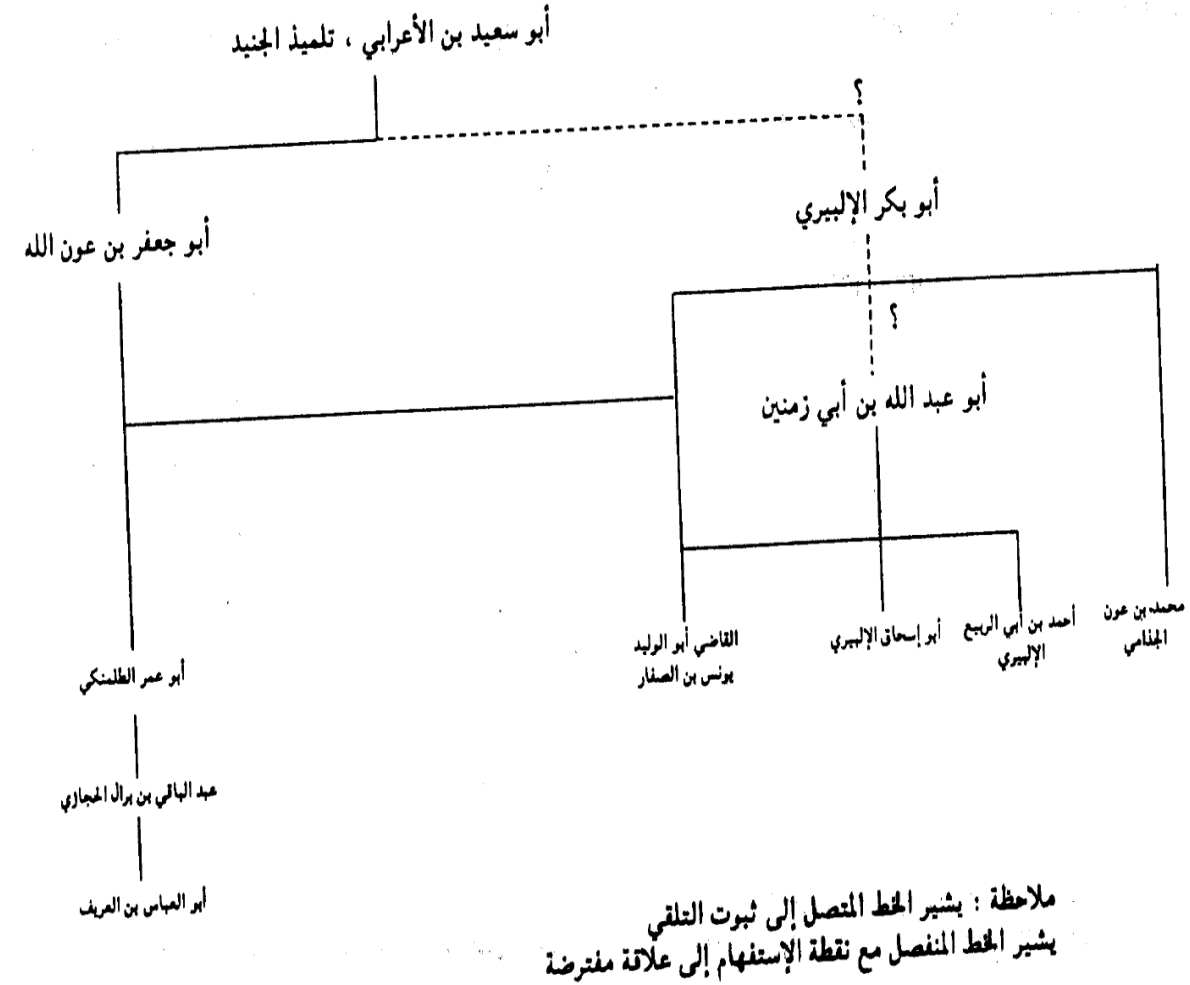

ملاحظة : يشير الخط المتصل إلى ثبوت التلقي
يشير الخط المنفصل مع نقطة الإستفهام إلى علاقة مفترضة

عبد السلام غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الاندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد ، المغرب،2000

ارث المدنية و اثرها في نشأت الطرق الصوفية بالغرب الإسلامي:

اذا كان المشرق بلاد الأنبياء فالمغرب بلاد الاولياء .كان لبومدين شعيب المغرب تأثيرا كبيرا في المشرق و المغرب الاسلامين. اعتبره المقدسي (678ه) رئيس جمعة الصالحين الأربعة، قبل يزيد البسطامي (188ه-261) سلطان العارفين و أبو حامد الغزالي حجة الإسلام.

تأثر به سيدي أبو الحسن الشاذلي ، مؤسس اول طريقة في الغرب الإسلامي التي تفرعت منها اغلب الطرق، هو و خليفته أبو العباس مرسي (616 ه-686ه) الذي رحل الى الإسكندرية و نقل اليها تعاليم أبو مدين شعيب و الحسن الشاذلي و عاش بها الى ان مات و دفن به في جامع يحمل اسمه اليوم.

كان بومدين شعيب امام السلف و الخلف من اهل الزهد و التصوف في الغرب الإسلامي. تأثر بنهجه كبار مشايخ التصوف و مؤسسي اغلب الطرق و المدارس بدْءًا بالمدرسة الشاذلية التي تولدت عنها الزروقية للفقيه المتصوف احمد الزروق و اليوسفية لأحمد بن يوسف الملياني الراشدي صاحب الثورة على ابي حمو الزيُّاني.

المدرسة او النهج الزروقي :

كان احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي المعروف بالزروق (846ه-899) من كبار الفقهاء صاحب " الشروحات " و هي مرجع معتمد عن الفقهاء المالكية. اعتنى بالسيرة النبوية و التربية و التأديب كمسلك للرقي بالانسان . بعد رحلاته العلمية و سياحته الروحية قادته الى المشرق و بلاد الحجاز قام بتأسيس مدرسة تعتبر التصوف كمنهج حياة متكامل و متجانس مع الكتاب و السنة.

المدرسة اليوسفية :

احمد بن يوسف و هو أبو احمد أبو عباس احمد بن يوسف الراشدي الملياني (1432-1524م) صاحب "رسالة التحقيق و منهج الهدى الى الطريق" متصوف و فقيه تأثر بأبو مدين شعيب و احمد الزروق و الحسن الشادلي و كلهم ينتمون الى المدرسة المدينية التي يربطها البعض بالنهج الغزالي. ساهم احمد بن يوسف في البداية بنشر تعاليم الشاذلية ثم أسس مدرته الخاصة التي وسمت باليوسفية. كانت لها أدوار سياسية في المغرب الاوسط اتسمت بالثورة على الفساد و معاداة امراء بنو زيان الذين كان يعتبرهم بالطغاة عملاء طغاة الاسبان الكفرة. كما ناصر اتباعه في المغرب الأقصى و دافع عنهم ضد الوطاسيين.

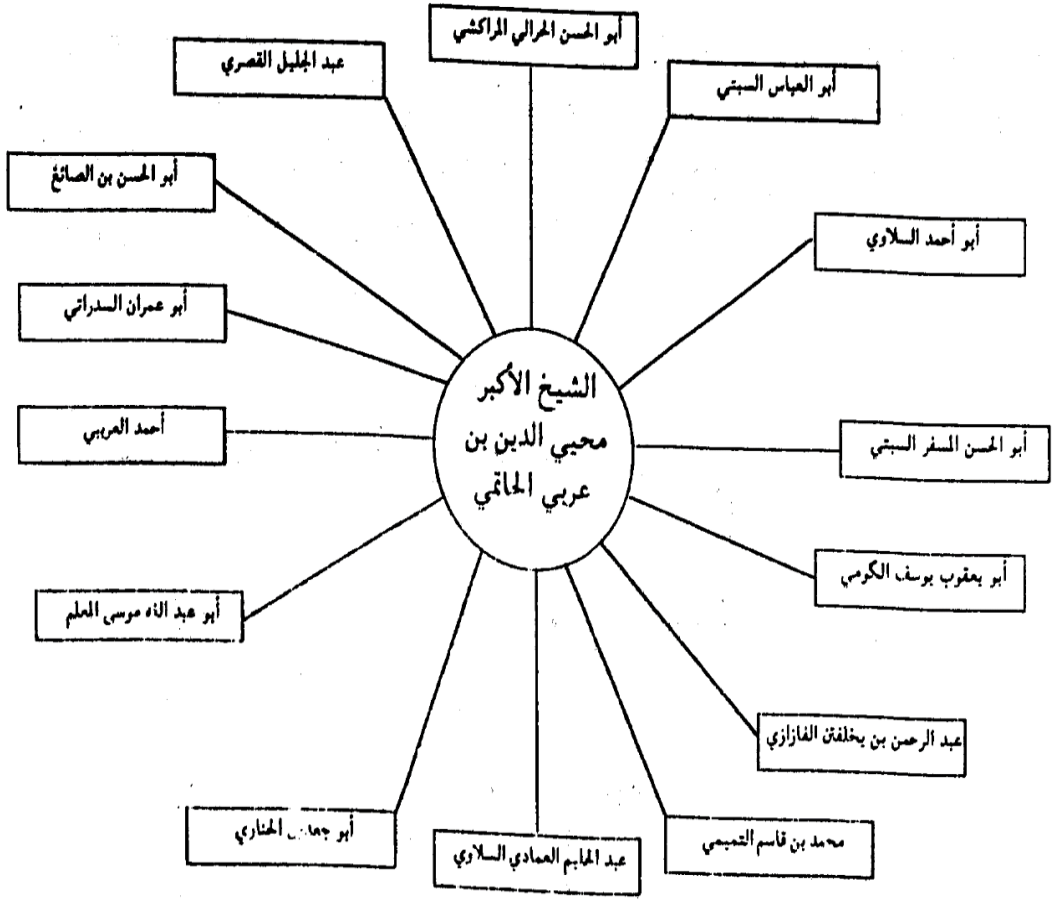

. بعض الأعلام المغاربة الذين استكمل معهم ابن عربي تكوينه الصوفي.

عبد السلام غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الاندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد ، المغرب،2000

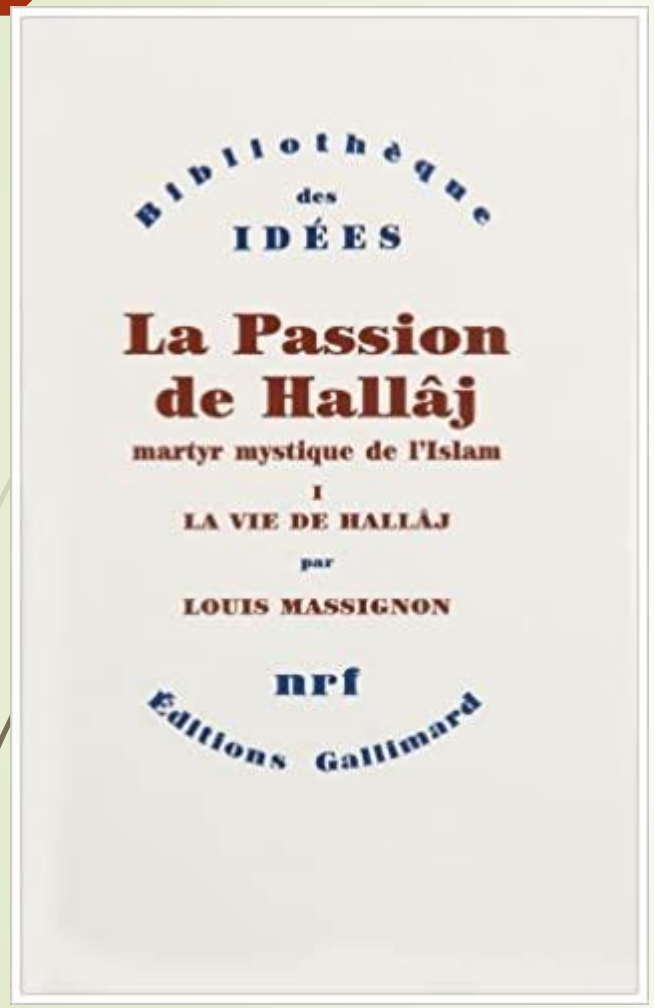

المصادر و المراجع :

عبد الوهاب الشعراني، لطائف المنن و الاخلاق، تحقيق احمد عزو، دار الثقوى حلب ،

20004

ابن كثر البداية و النهاية ،ج 11

أبو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين

ابن الابار، سير اعلام النبلاء ،

-ابن خلدون " شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ مكتبة الاسر ،1996

محمد الكحلاوي ، التصوف في افريقيا و المغرب، الفكر الصوفي في افريقيا و المغرب، بيروت لبنان ، 2009

عبد السلام غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الاندلسية في القرن السادس الهجري، جار الرشاد ، المغرب 2000

-Louis Massignon la Passion de Halladj, T.1,

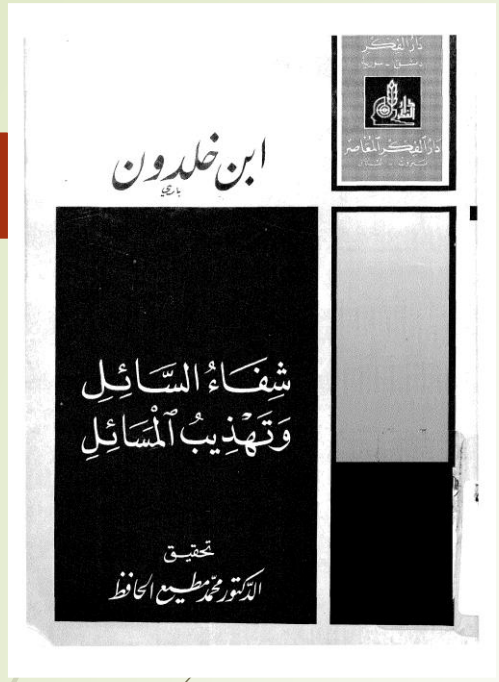
ابن خلدون
شفاء السائل
وتهذيب المسائل
تحقيق
الدكتور محمد مطيع الحافظ

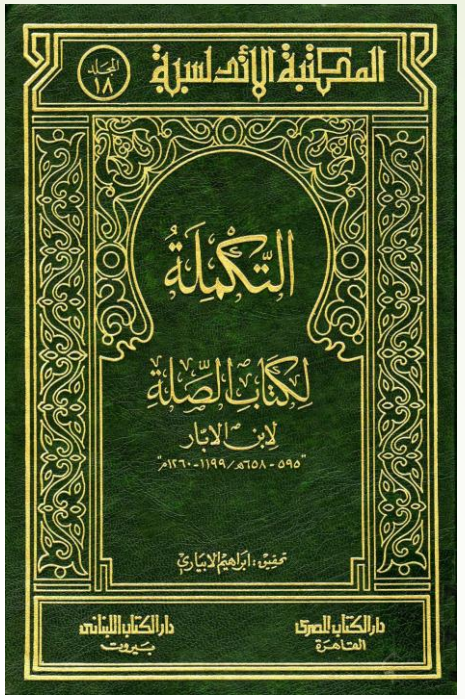
المجلد ١٨
المكتبة الأندلسية
التكملة
لكتاب الصلة
لابن الابار
تحقيق: ابراهيم الابياري
دار الكتاب المصري
القاهرة
دار الكتاب اللبناني
بيروت

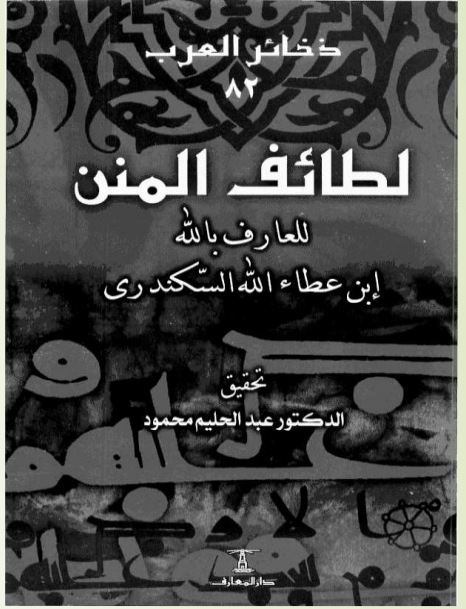
ذخائر العرب
٨٢
لطائف المنن
للعارف بالله
إبن عطاء الله السكندري
تحقيق
الدكتور عبد الحليم محمود
دار المعارف

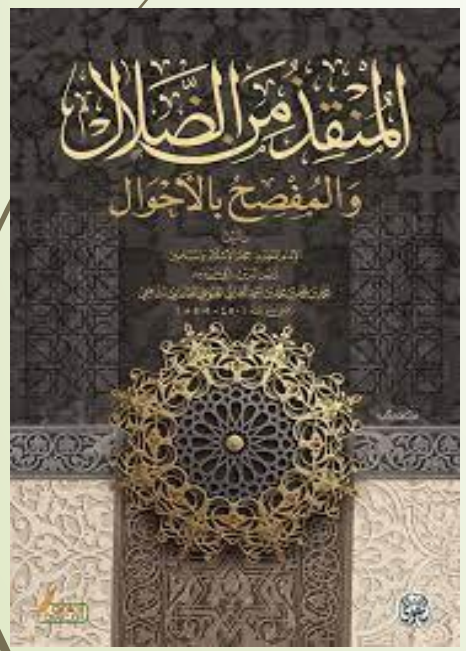
المنقذ من الضلال
والمفصح بالأحوال

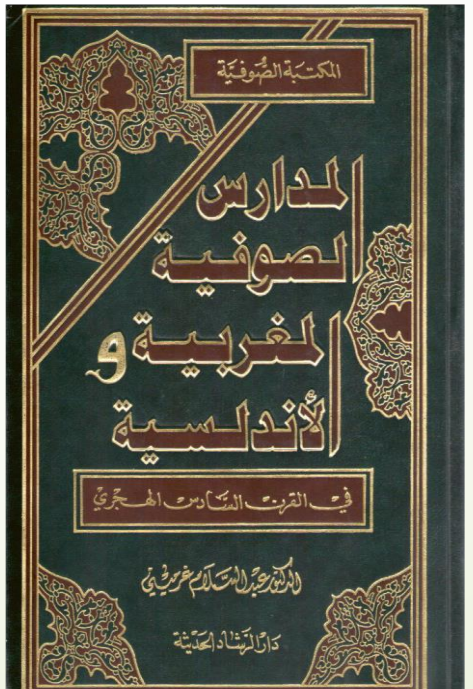
المكتبة الصوفية
المدارس الصوفية المغربية و الأندلسية
في القرن السادس الهجري
الدكتور عبد السلام غزيوي
دار الرشاد الحديثة

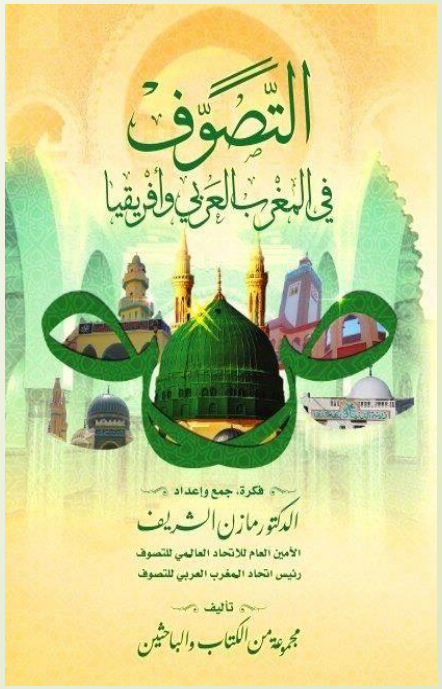
التصوف
في المغرب العربي وإفريقيا
فكرة، جمع وإعداد
الدكتور مازن الشريف
الأمين العام للاتحاد العالمي للتصوف
رئيس اتحاد المغرب العربي للتصوف
تأليف
مجموعة من الكتاب والباحثين

البروفيسور كمال الفيلالي
http://www.kml-filali